الجفاف وندرة الماء وعلاقتهما بتراجع الحواضر الصحراوية الموريتانية (ولاته وودان نموذجا)

الطيب بلاه حمودي
طالب دكتوراه: مكونة التاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

المقدمة:

إن كانت الحواضر الصحراوية الموريتانية قد شهدت فترات من التطور والازدهار الاجتماعي والاقتصادي والثقافي خلال المراحل التاريخية الماضية وخاصة القرنين 16 و17م، فإنها بدأت تشهد تراجعا متسارعا نتيجة لعوامل مختلفة منها ما هو سياسي واقتصادي واجتماعي وطبيعي، ولعل العامل الطبيعي من أشد هذه العوامل فتكا لماله من تأثير كبير على، فعوامل التراجع هذه سواء اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية كانت تتأثر بشكل مباشر أو غير مباشر بالعوامل الطبيعية خاصة ما يتعلق منها بالجفاف وندرة الماء الذي نرى أنه أهم العوامل التي كانت وراء احتشام الإرث الحضري في المجال الموريتاني وتواضع ظاهرة التمركز الحضري في هذا المجال، فكما أن تواجد الآبار وتوفر نقاط المياه كان سببا في ظهور وازدهار المراكز الحضرية والتجمعات البشرية والعمارة، فإنها بشكل معاكس (أي الآبار ونقاط المياه) كانت وراء خراب العمارة واختفاء المراكز الحضرية، وفي هذا الإطار سنحاول تسليط الضوء على أجزاء مهمة من تاريخ الإرث الحضري الموريتاني وتأثير عاملي الجفاف وندرة الماء من خلال دراسة حالتي ولاته وودان. فكيف كان ذلك؟

أولا: مدخل تاريخي حول المراكز الحضرية في المجال الموريتاني

عرف المجال المعروف اليوم باسم موريتاني المراكز الحضرية منذ فترات قديمة تراوحت بين كثافة الحواضر والقرى أحيانا وندرتها أحيانا أخرى حسب العصور وتبعا للظروف والتحولات التي عرفتها المنطقة مثل فترات الجفاف، وندرة الماء والفوضى الأمنية، وذلك منذ فترات ما قبل التاريخ[1] والعصور

[1]- Mohamed Ould Khattar, Préhistoire Du Sud-est Mauritanien, Le Dhar Tagant, Dossiers et Recherches, sur l'Afrique, NO2, p. 131

القديمة وحتى الفترة الوسيطة[1] لذلك فإن علاقة الصحراء الموريتانية بالعمران البشري ليست بالأمر الجديد بل تعود تلك العلاقة إلى آماد زمنية سحيقة.[2]

شهدت الفترة الوسيطة ظهور الكثير من التجمعات العمرانية في المنطقة وذلك ناتج عن ازدهار العلاقات التجارية بين الصحراء وجنوبها وشمالها ابتداء من القرن 8م، وشواهد ذلك ظهور حواضر كثيرة عمت أرجاء المنطقة تقريبا وكانت مواقع هذه الحواضر غالبا ما تكون على ممر القوافل التجارية وفي الأقاليم التي توفر مساحات خضراء ونقاط مياه تساعد على بقاء المواشي وخاصة الجمال[3] على قيد الحياة، وقد استطاعت تلك الحواضر بما وفرته من وسائل عيش معقولة وفرص استقرار جيدة أن تجذب سكانا تجاوزوا الآلاف في الحاضرة الواحدة[4] وكان من أشهر الحواضر التي بدأت في الظهور خلال هذه المرحلة من تاريخ الصحراء (آبير- أودغست- كمبي صالح- آزوكي- تيشيت- ولاته- ودان...إلخ ، كما ذكرت المصادر العربية حواضر ومراكز عمرانية كانت منتشرة على طول الطرق التجارية الرابطة بين شمال وجنوب القارة لم يعد بالإمكان تحديد مواقعها وذلك لكونها اندثرت منذ فترات قديمة، ويمكن في هذا الإطار أن نذكر أهم تلك الحواضر وهي (آزقا- تيماماناوت- وارتنني- بانكلابين- مدوكن- قمنورية ...إلخ هذا بالإضافة إلى التجمعات البشرية التي عرفتها المنطقة الغربية الساحلية المحاذية لطول الشاطئ الأطلسي المطل على الصحراء، فمناطق آفطوط الساحلي من شمال موقع نواكشوط الحالي حتى مصب النهر الصنهاجي جنوبا، تكاد تكون مغطاة ببقايا آثار الاستقرار البشري[5]"... وأكثر آثار العمران في تلك المنطقة تعود إلى الفترة الوسيطة، خاصة منها القرى والمداشر المعاصرة لاستغلال مملحة آوليل، وقد شيدت أغلب تلك القرى على الكثبان الرملية الصفراء خوفا من أن تغمرها الفيضانات التي عادة ما كانت منطقة آفطوط الساحلي تتعرض لها"[6]

---

[1]- ولد الحسين الناني، صحراء الملثمين، دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط، منتصف القرن 2هـ\8م إلى نهاية القرن 5هـ\11م، دار المدار الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 2007، ص 315

[2]. تحولات المدينة الصحراوية الجزائرية، ج1، مجموعة باحثين، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائر، ص 12

[3]- Lhote (H.), "le cheval et le chameau dans le peintures et gravures rupestres du Sahara " In: Bulltin de l'institut français de l'Afrique noire° 15, 1953, pp. 1138-1228.

[4] – ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 316

[5] – راجع حول هذا الموضوع خلاصات الأبحاث الأركيولوجية حول الموضوع

– موريتانيا القديمة، تأليف بوبه محمد نافع ومحمد الأمين ولد ختار ، وروبير فيرني **وجان كلود كلوتشكوف، موريتانيا اليوم** والأركيولوجيا الموريتانية في متحف نواكشوط، روبير فيرني وبوبة ولد محمد نافع.

[6] – ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 320

وخلال القرن 5هـ 11م ظهرت حواضر صحراوية مدفوعة بتشجيع الحركة المرابطية للحركة التجارية الصحراوية والتحولات التي شهدتها الطرق التجارية[1] وفي هذا الإطار يمكن أن نقسم الحواضر الصحراوية الموريتانية إلى جيلين (الحواضر البائدة، والحواضر الحية). ونعني بالحواضر البائدة تلك الحواضر المندثرة التي لم تعد معمرة ولم تبقى غلا آثارها مثل (أودغست– كمبي صالح– آزوكي – تينيكي ...)، أما الحواضر الحية فنعني بها الحواضر التي مازالت موجودة حتى اليوم بعِمارتها ومُعمِريها.

أ- الحواضر البائدة: أودغست نموذجا

توجد آثار حاضرة أودغست التاريخية قرب بئر النوداش، و يبعد موقع هذه الحاضرة قرابة 34 كلم شمال شرق مدينة تامشكط الواقعة في منطقة الحوض في موريتانيا الحالية، وقد اختلف الإخباريون والجغرافيون والمؤرخون العرب حول تسمية حاضرة أودغست، حيث وردت تسميتها بعدة صيغ وألفاظ مختلفة، فهذا اليعقوبي يطلق عليها غسط[2] أما ابن حوقل فيذكرها بلفظة أودغست،[3] وهي التسمية التي ذكرها البكري[4] والإدريسي[5] والمراكشي[6]، أما ياقوت الحموي[7]وابن عبد الحق[8] فإنهما يختلفان في التسمية حيث أطلق عليها اسم أوذقست، أما المهلبي[9] فذكرها بلفظتين مختلفتين هما (أوذغست – و أودغست) أما الحميري[10] فيلفظها أودغشت، والراجح من التسميات هو أودغست حسب ما ذهب أليه أغلب المؤرخين العرب، أما عن موقع أودغست فهي تقع في الشمال من غرب إفريقيا بين بلاد الملثمين وبلاد السودان، يحدها من الغرب البحر المحيط، ومن الجهة الجنوبية والشرقية بلاد السودان،[11] ومن الشمال المغرب الأقصى، وقد ذكر المؤرخون أن أودغست كانت مدينة كبيرة مليئة

---

[1] – النانى، مرجع سبق ذكره، ص 321

[2]– أحمد بن أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي، البلدان، المكتبة الحيدرية، النجف، العراق، 1957، ص 111

[3] – أبو القاسم محمد بن حوقل، صورة الأرض، دار صادر، بيروت، لبنان، 1938، ج1، ص 36

[4] – أبو عبد الله البكري، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، 1992، ج2، ص 848

[5] – محمد بن عبد الله الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، 1409هـ، ج1، ص 108

[6] – المراكشي، الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية بغداد، 1986م، ص 216

[7] – شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط2، دار صادر، بيروت، 1995، ج1، ص 277

[8] – صفي الدين عبد المؤمن عبد الحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط1، دار الجيل، بيروت 1954م، ج1، ص 130

[9] – الحسن بن أحمد المهلبي العزيزي، المسالك والممالك، د. ت. ن، د.، ص 45

[10] – محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م، ص 63

[11] – ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، ط2، دار صادر، بيروت، 1995م، ص 277

بالسكان، تعود نشأة أودغست لموقعها الاستراتيجي خاصة وقوعها بين غانة وسجلماسة حيث أهلها موقعها لتصبح سوقا للتبادل التجاري[1] تتداعى إليها القوافل التجارية القادمة من القيروان وسجلماسة وغانة وبلاد السودان وغيرها من المناطق المجاورة[2] كما كانت عاصمة اقتصادية لمملكة غانا قبل أن تصبح العاصمة السياسية للقبائل الصنهاجية ومن ثم منطلقا للحركة المرابطية في طورها الحركي.

ب-الحواضر الحية (ولاته وودان نموذجا):

- **ولاته**

تصنف ولاته بكونها من أقدم الحواضر الصحراوية في منطقة غرب إفريقيا، ويذهب بعض الدارسين إلى أن تاريخ تأسيس الحاضرة يعود إلى القرن الثاني الهجري مع أن تاريخ هذه الحاضرة يعتبر مثار جدل كبير، ولعل ما يفسر هذه الجدلية الكبيرة هو غياب تأريخ مضبوط لتأسيسها[3]، وأول من ذكر ولاته هو السعدي في كتابه تاريخ السودان في معرض حديثه ن تنبكتو التي ذكر أن ازدهارها كان مرتبطا بتراجع المكانة الثقافية والاجتماعية لبيرو[1]" ولاته الأولى" وبعد السعدي ورد ذكر ولاته مع ابن بطوطة الذي زارها وقدم عنها معلومات هامة تعتبر حتى اليوم أهم المصادر المكتوبة حولها، وقد عرفت ولاته عبر تاريخها بعدة تسميات عبرت عن المراحل التاريخية التي مرت بها: بيرو وهي التسمية الأولى ثم إيولاتن حسب بن بطوطة، وأخيرا ولاته والتسمية الأخيرة هي التي استُقِر عَليها، وقد ذكر الخليل النحوي في كتابه بلاد شنقيط أرض المنارة والرباط: أن ولاته تأسست في القرن الأول الهجري كما أضاف أن زيارة الرحالة بن بطوطة للحاضرة ذكر أنها تظهر عليها علامات الشيخوخة، ولعل هذه الإشارة من ابن بطوطة تؤكد أن الحاضرة ضاربة في القدم، أما المختار بن حامد فيقول: " قيل أسسها سرغلات سنة 1214م\611هـ عندما تفرقوا من غانا (...) والمحاجيب أول من سكن ولاته من أهلها اليوم وكانت لهم الرئاسة فيها ..."[4] أما الناني ولد الحسين فيرى أن ولاته تأسست منذ قرون عديدة وكانت تعرف باسم بيرو، وكانت لها صلة وطيدة بغانا وذلك منذ القرن 2هـ\ 8م، ثم ما لبثت أن أصبحت تعرف باسم ولاته وذلك من القرن 13م، ولكن الرأي السائد عند أهل ولاته هو أنها تأسست قبل ظهور الإسلام قبل أن يفتتحها عقبة بن نافع في القرن 1هـ\ 7م وتذهب الروايات المحلية الولاتية

---

[1] – البكري، المسالك والممالك، مصدر سابق، ص 862

[2] – أبو عبد الله البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت. ن، ص 158

[3] -Jacques-Meunié (D.) , Cites Ancienne de Mauritanie, Provinces du Tagant Et du Hodh, Librairie C, KLINCKSIECK, Paris, 1961, p, 71

[4]– ابن حامد المختار، موسوعة حياة موريتانيا (التاريخ السياسي)، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2000، ص 62- 63

أن قبر العاقب ابن عقبة يوجد بالقرب من المسجد العتيق فيها[1] ولها باع في التاريخ القديم للمنطقة" ... وقد انتقلت بعض الأسر السوننكية الثرية، والتجار العرب والبربر، سنة 625هـ بقيادة الشيخ إسماعيل إلى بيرو وأسسوا ولاته..."[2] أما حماه الله ولد السالم فقد ذهب في التأصيل لنشأة ولاته مذهبا بعيدا حين قال: " التاريخ القديم لولاته موغل في القدم ولذلك فإن الحقائق في شأنه قليلة، فبعض الروايات ترجع تأسيس المدينة إلى بني إسرائيل قبل الإسلام خلال القرنين 6 و7 للميلاد، وخلال القرن 5هـ 11م سيطر المرابطون عليها فأضحت مدينة ولاته القرية الصغرى آن ذاك خاضعة لنفوذهم، وفي القرن 6هـ 12م سقطت مملكة غانا في أيدي الصوصو 1203م مما اضطر المسلمين بقيادة الشيخ إسماعيل إلى اللجوء إلى المدينة ليعيدوا تأسيسها على نحو فعلي حدود 1224م بوصفها حاضرة إسلامية كبرى ومحطة متقدمة على طريق التجارة بين المغرب والسودان وبذلك ورثت ولاته الدور التاريخي لمدينة كمبي صالح عاصمة مملكة غانا حسب ما تذكر الروايات...."[3] يضيف ولد السالم"... واسمها الأول بيرو، وقد أطلقه عليها السوننكي، أو البمبارة وهو في لغتهم السودانية المدخل، حيث كانوا يقولون (بيرو بافه) أي مدخل المدينة، وإذا أضافوا المصر إلى سكانه قالوا بيرو كو أي سكان ولاته، وأقدم إشارة إلى هذه التسمية ما قدمه السعدي " كانت عمارة تنبكتو خراب بيرو، أما الإسم الحالي ولاته فهو في نظرنا النطق العربي الحساني للإسم الصنهاجي (إولاتن) وكان أطلقه على المدينة بطن من مسوفة لعله أول من قطنها من البيض، ومعناه السفح الجبلي، وفي لغة التوارق وهي فرع من الصنهاجية"[4]

- **ودان**

وادان كغيرها من القصور الموريتانية تعاني من تضارب الروايات المتعلقة بتأسيسها، لكن أشهر هذه الروايات هي قصة الحجاج الثلاثة أجداد قبيلة إدو الحاج[5] يقول بن حامد:"... وهم الذين بنو ودان الجديد على أن قاض ودان القديمة سنة 536هـ (...) وقد أيد صالح بن عبد الوهاب الناصري الرأي القائل بأن ودان القديمة كانت مجموعة قرى صغيرة لقبيلة مسوفة[6] وبالتالي فإن وادان الحالية تأسست

---

[1] – الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، المرجع السابق، ص 319

[2] – ولد أيده أحمد مولود، مدن موريتانيا الوسيطة، ص، 186

[3] . ولد السالم حماه الله، تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية، منشورات الزمن،2007، ص 166

[4] . نفس المرجع، ص 165

[5] – ولد أيده (أحمد مولود)، مرجع سابق، ص 182

[6] – ابن حامد، حياة موريتانيا، التاريخ السياسي، ص 61

على أنقاض قرى صنهاجية قديمة. وكانت عبر تاريخها الطويل ملتقى للهجرات البشرية القادمة من الشمال[1] كما كان موقعها الجغرافي أهم العوامل التي ساهمت في ازدهار حيث أكسبها هذا الموقع الاستراتيجي ميزات هامة لعل أهمها وقوعها على ملتقى الطرق التجارية ذات المنافع الاقتصادية الكبيرة حيث القوافل المحملة بالبضائع والسلع خاصة الملح القادم من مملحة الجل شمال وادان بالإضافة إلى الذهب وغيره من المواد التجارية. فإلى الشمال كانت تصدر" المواشي والمصنوعات الجلدية والذهب والتوابل.. بينما كانت يصدر للجنوب الملح والتمور والأقمشة والمصنوعات المعدنية"[2].

ثانيا: أسباب تواضع وتراجع الحواضر الصحراوية الموريتانية

(الجفاف وندرة الماء مثالا حالتي ولاته وودان)

1- ولاته:

ولاته كغيرها من الحواضر الصحراوية الواقعة ضمن المجال المعروف اليوم باسم موريتانيا ظلت عبر تاريخها الطويل تعاني من صعوبة المُناخ وانعكاسه على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وذلك راجع إلى وقوع المنطقة بشكل عام في المجال الصحراوي نتيجة لموقعها الفلكي الحار والشديد الجفاف الناتج عن تعرضها للإشعاع الشمسي بشكل مستمر، وهو ما جعل مشكلة الجفاف وندرة الماء أكبر التحديات المطروحة أمام سكان الصحراء عامة وسكان ولاته بشكل خاص، وقد ظل المناخ والمشاكل المرتبطة به كالجفاف وندرة الماء أهم الأسباب المنطقية التي كان لها الفضل في ازدهار هذه الحاضرة وكنتيجة عكسية كان هذان العنصران من أسباب التراجع التي ستعرفها ولاته مع بداية القرن السابع عشر الميلادي، ولكن قبل أن نغوص في الحديث عن دور الماء والجفاف في ازدهار وتراجع المكانة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لولاته، حيث تعتمد مقاربتنا على محاولة قراءة الحالة العامة للمناخ الولاتي والصحراوي بناء على المعطيات الحديثة واعتمادا على ما أوردته المصادر العربية الوسيطة والحوليات المحلية وتقارير الرحالة الأوروبيين.

أ- الجفاف وندرة الماء في لاته الجذور التاريخية والإكراهات المناخية:

إن موقع ولاته الفلكي الذي جعلها في الجزء الشمالي من الكرة الأرضية وبالتحديد في النطاق المداري على وجه الخصوص جعلها في منطقة يتجاذبها مناخان مختلفي الخصائص، المناخ الصحراوي

---

[1]- محمد الأمين ولد الكتاب، المرجع السابق، وادان، ص 10

[2]- النحوي (الخليل)، بلاد شنقيط أرض المنارة والربا عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد اديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحضرة) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس،1987، ص 71

الشمالي الشرقي المتأثر بالصحراء الكبرى والمناخ السوداني الساحلي جنوبا والمناخ المتوسطي شمالا مما أضفى عليها اضطرابا مناخيا على مدار العام ومن فترة لأخرى.[1] وقد اتفق الرحالة والإخباريون العرب على ارتفاع درجات الحرارة خلال الفترة الوسيطة والفترات التي تلتها ولازالت ولاته والصحراء الموريتانية بشكل عام تعاني من ارتفاع درجات الحرارة وصعوبة المناخ والجفاف والتصحر، فهذا الإدريسي يعلل سبب ارتفاع درجات الحرارة بالموقع الفلكي حسب استنطاق الناني ولد الحسين لهذه المقولة"... وهذه البلاد كثيرة الحر حامية جدا، ولذلك فإن أهل الإقليم الأول والثاني وبعض الثالث لشدة الحر وإحراق الشمس لهم كانت ألوانهم سوداء..."[2] ولعل المتمعن في كلام الإدريسي هذا سيلاحظ تطابقا بين كلام الرجل مع ما أثبتته الدراسات البيئية والفلكية المعاصرة التي ترد ارتفاع الحرارة في هذه الأرض لوقوعها بين المدارين (السرطان– الجدي) ودور ذلك في الإشعاع الشمسي المسلط على المنطقة أغلب أيام السنة وانعكاسه على مستويات درجات الحرارة فيها، ومناخ ولاته في الحقيقة هو جزء لا يتجزأ من مناخ المنطقة التي من ضمنها وهو المناخ الذي يتميز بالإشعاع الشمسي العمودي خلال أغلب أيام السنة وهو ما يترب عليه درجات حرارة عالية مصحوبة بموجات جافة لها انعكاسات سلبية على المخزون المائي والغطاء النباتي في المنطقة الشيء الذي تنجر عنه درجات حرارة عالية أغلب أيام السنة حيث تكون الحرارة مرتفعة في الصيف ويكون البرد شديدا خلال الشتاء وهو ما يعبر عن ارتفاع كبير في المدى الحراري.[3]، وقد قدم الوزان وصفا دقيقا للحالة المناخية في ولاته والصحراء التي خبراها جيدا حيث عبرها مرتين من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب بقوله:" إن هذه الصحراء شديدة الجفاف وعرة (...) وتسير جنوبا حتى أرض السودان عند مملكتي **ولاته** وتنبكتو، لا يوجد فيها ماء إلا على مسافة مائة ميل أو مائتي ميل بالإضافة إلى أنه مالح مر في آبار عميقة جدا، خصوصا في الطريق المؤدية من سجلماسة إلى تنبكتو"[4] كما قدم موسى بن سعيد المغربي صاحب كتاب الجغرافيا وصفا دقيقا للحالة العامة لمناخ الصحراء بقوله " لا ماء ولا مرعى ولا عمارة، بل رمال سائلة وطرق مضللة طامسة وأكثرها يكون فيه اللمط وإنه صابر على العطش (...) وأول ما يلقاك من هذا الجزء صحراء سير التي يقطعها المسافرون ما بين سجلماسة وغانا، وهي طويلة عريضة يكابدون فيها شدة العطش ووهج الحر، وربما هبت ريح جنوبية ونشفت

---

[1] – بشيري محمد، ولاته بطاقة تعريفية، نشرية تصدر عن مركز البحوث والدراسات الولاتية، 2014، ص 11

[2] – ولد الحسين الناني، نقلا عن الإدريسي، ص 28

[3] –Toupet Charles, Le Sahel, Nathan Université, p. 61

[4]– الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج2، 1983، ص 148

المياه في القرب"[1] إن هذه القساوة المناخية التي عرفتها الصحراء بما في ذلك ولاته والتي ظلت متواصلة طيلة القرون الماضية وحتى هذا العصر، كانت متزامنة مع إشكالات من أهمها مشكل ندرة الماء في المفاوز والمسالك الصحراوية المؤدية من وإلى ولاته، ولعل أفضل وصف لهذه الحالة الصعبة ما أورده اليعقوبي في كتابه البلدان حين قال:"... قوم يقال لهم أنبية من صنهاجة في صحراء ليس لهم قرار شأنهم كلهم أن يتلثموا بعمائمهم ... ومعاشهم من الإبل ليس لهم زرع ولا طعام..." أما صاحب كتاب صورة الأرض أبو القاسم بن حوقل فقد عبر عن مشكل ندرة الماء بقوله:"... وفيهم أصحاب ماشية وخيل وبغال (...) ويستنتجون البغال وغيرها، ومنهم من لا يقدر لعوز الماء على غير الإبل واليسير من المعز ولنأي الماء عنه."[2] ثم يضيف بن حوقل في وصف حال أهل الصحراء خاصة مسوفة التي كانت ولاته ضمن مجالها الجغرافي:"... وبنو مسوفا قبيل عظيم من المقيمين بقلب البر على مياه غير طائلة، لا يعرفون البُر ولا الشَعير ولا الدقيق، وفيهم من لم يسمع بهما إلا بالمثل، وأقواتهم الألبان، وفي بعض الأوقات اللحم، وفيهم من الجَلد والقوة ما ليس لغيرهم..."[3] وفي معرض كلام البكري عن قبيلة لمتونة يقول:" ... وليس يعرفون حرثا ولا يزرعون زرعا ولا يعرفون خبزا، إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم والبن (...) وشرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء، ويبقى الرجل منهم لا يشرب الماء، وقُوتُهم مع ذلك مكينة وأبدانهم صحيحة... "[4] وهذا الإدريسي يصف الظروف الطبيعية الصعبة التي تتميز بها الأجزاء الشمالية والوسطى من البلاد وما كان يعانيه سكانها والمسافرون عبرها من مشاكل في مقدمتها ندرة الماء" ... وهذه الصحاري بها مجابات بلا مياه، وذلك أن الماء لا يوجد فيها إلا بعد يومين وأربعة عشر يوما مثل مجابة نيسر التي في طريق سجلماسة إلى غانة، وهي أربعة عشر يوما لا يوجد فيها ماء ..." ولعل أقرب وصفٍ لما كانت عليه ولاته وأحوازها من مشاكل جمة تتعلق بندرة الماء مقاله ابن بطوطة :" ... ولقد لقينا قافلة في طريقنا فأخبرونا أن بعض الرجال انقطعوا عنهم فوجدنا أحدهم ميتا تحت شجيرة من أشجار الرمل وعليه ثيابه وفي يده سوط، وكان الماء على نحو ميل منه، ثم وصلنا إلى تاسر هلا وهي أحساء ماء تنزل

---

[1]. موسى بن سعيد المغربي، الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطاعة والنشر، والتوزيع، بيروت، 1970، ص 113

[2] . أبو القاسم ابن حوقل النصيبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979، ص 100

[3] . ابن حوقل، صورة الأرض، نفس المصدر السابق، ص 98

[4]. أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، المسالك والممالك، ج2، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، 2002، ص 351.

القوافل عليها ويعتمون ثلاثة أيام فيستريحون ويصلحون أسقيتهم ويملأونها بالماء ويخيطون عليها التلاليس خوف الريح، ومن هنا يبعث التكشيف والتكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة فيتقدم إلى إيولاتن بكتب الناس إلى أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجون للقائهم بالماء مسيرة أربع (...) وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء فلا يعلم أهل إيولاتن بالقافلة فيهلك أهلها أو الكثير منهم"

أما عن التساقطات المطرية فهي تتميز بالتذبذب حسب الفترات وحسب المناطق، فكلما اتجهنا شمالا تناقصت الأمطار، وكلما اتجهنا جنوبا زادت الأمطار، وقد ذكر الناني نقلا عن بعض الدارسين أن كميات الأمطار المتساقطة على غرب الصحراء عموما بما في ذلك ولاته قد تناقصت منذ العصر الوسيط بما مقداره 200 مليمتر سنويا وذلك راجع حسب هؤلاء الباحثين إلى تراجع الجبهة المدارية إلى الجنوب بمسافة قدرها 200 كلم، في حين يرى البعض الآخر أن الجفاف في المنطقة بدأ بشكل خطير منذ القرن 11م حيث بدأت كميات الأمطار منذ تلك الفترة في تناقص مستمر قرنا بعد قرن[1]. كما ذكر Ch. Toupet أن الصحراء قد عرفت فترات من القحط وفترات ماطرة خلال العهد الوسيط[2]. والناظر فيما تقدم يلاحظ تطابقا كبيرا بين مستوى التساقطات المطرية خلال الفترة الوسيطة وما عليه الحال في الفترة الراهنة حيث ظلت التساقطات المطرية في ولاته محدودة على مدى العام وذلك راجع إلى شدة تأثير المناخ الصحراوي القادم من الصحراء الكبرى على حساب المناخ السوداني الساحلي، وهو ما نتج عنه ارتفاع درجات الحرارة على مدى تسعة أشهر من العام في حين لا يتجاوز الفصل المطير ثلاثة أشهر، وهو ما أكده الناني ولد الحسين أن بعض لمصادر العربية[3] ذكرت أن المنطقة كانت تمر بسنوات قحط منذ بداية القرن 5هـ\ 11م وهو أمر غير مستغرب إذا عرفنا أن الصحراء بشكل عام يطبعها الجفاف وندرة الأمطار[4]، لذلك ظلت الأمطار متذبذبة في الكثير من الأحيان[5]

ب- مصادر المياه ووسائل الحصول عليها في ولاته ومحيطها تاريخيا:

كانت عملية الحصول على الماء عند أهل ولاته تعتمد أساسا على مصدرين هما المصادر الباطنية التي يتم الوصول إليها عن طريق حفر الآبار والاستفادة من المياه الجوفية، أو عن طريق المصادر

---

[1] – ولد الحسين الناني، صحراء الملثمين، المرجع السابق، ص 29

[2]– أنظر حول هذا الموضوع

Ch. Toupet. Les conditions Climatiques et Vegetales et lamise en valeur de la région. In Tgdaoust. P.66

[3] – ابن الأثير أبو الحسن علي ابن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، دار الفكر بيروت، 1978، (ج8) ص 75

[4] – ولد الحسين الناني، صحراء الملثمين، المرجع السابق، ص 30

[5] – ولد الحسين الناني صحراء الملثمين، نفس المرجع، نفس الصفحة.

السطحية للماء التي تعتمد أساسا على التساقطات المطرية التي تغذي المسطحات المائية التي يعتمد عليها السكان، والحقيقة أن كلى هذين المصدرين يعتمد على التساقطات المطرية التي لها خصوصياتها في المجال الذي تنتمي إليه ولاته لذلك كانت مصادر المياه في ولاته عرضة للتقلبات المناخية.

_ أما المياه السطحية فكانت تنحصر أساسا في الغدران التي كانت تنتج عن التساقطات المطرية خلال فترات الأمطار، وكانت الغدران عبارة عن خزانات مائية دائمة لأهل الصحراء ومثلت الملجأ الذي يلجئون إليه في الكثير من الأحيان وخلال فترات قلة الأمطار حيث كانت هذه الغدران المكان المناسب للشرب ولسقاية المواشي خاصة في المناطق التي لا توجد بها آبار، وحسب الناني ولد الحسين[1] فإن هذه الغدران كانت تحتفظ بالمياه طيلة فصل الخريف وحتى فصل الشتاء أحيانا، وربما تحتفظ بالماء طيلة أيام السنة وذلك تبعا لكميات الأمطار التي تشهدها المنطقة خلال فترة الخريف.

_ أما بالنسبة للمياه الجوفية فهي المصدر الثاني للمياه في الصحراء حيث عمد أهل الصحراء إلى حفر آبار في المناطق التي توجد بها بحيرات جوفية، وقد تمكن سكان الصحراء منذ فترات تاريخية ليست بالقريبة من مراكمة الكثير من التجارب المتعلقة بالبحث عن مصادر المياه الجوفية وحفر الآبار وتطوير تقنية الحفاظ عليها كخزانات مائية دائمة لا غنى عنها، ومن الأمثلة على تلك التراكمات التي مثلت تجارب ميزت أهل الصحراء في بحثهم عن الماء ما ذكره الإدريسي" ... وشربهم من عيون يحفرونها في تلك الأرض عن علم لهم بها وتجربة في ذلك صحيحة..."[2] ومن الأمثلة على التجربة التي اكتسبها أهل الصحراء من تقنية حفر الآبار والاهتداء إلى مظان المياه الجوفية – وتحديد قرب أو عمق المياه– ما ذكره الناني ولد الحسين نقلا عن الإدريسي، وهو أن قافلة تجارية كانت في بحر من الرمال ونفد ما لدى أصحابها من ماء وأشرفت على الهلاك لولا أن أحد سكان الصحراء كان مرافقا لهم حيث أخذ الصحراوي بعض الرمال في يده واشتمها ثم أمرهم بالحفر ففعلوا ووجدوا الماء على عمق لا يتجاوز نصف القامة.[3] كما برع أهل الصحراء في صناعة الآبار وإعادة بناء ما تهدم منها فكلما تهدمت بئر حفروا بجانبها أخرى، يقول البكري:" ... فتسير في هذا الجبل ثلاثة أيام إلى ماء يسمى تندفس آبار يحتفرها المسافرون فلا تلبث أن تنهار وتندفن..."[4].

---

[1] – ولد الحسين الناني، صحراء الملثمين، ص 31

[2] – ولد الحسين الناني، المرجع السابق، نقلا عن الإدريسي، ص 31

[3] – ولد الحسين الناني، صحراء الملثمين، ص 32

[4] – أبو عبيدة البكري، المسالك والممالك، (ج) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د، ت، ن.

تأثير الجفاف وتناقص الماء على ولاته ومحيطها:

من خلال الشهادات التي قدمها كتاب ومؤرخو الفترة الوسيطة يبدوا جليا الصعوبات التي وجهها أهل ولاته فيما يتعلق بندرة الماء وصعوبة الظروف الطبيعية خلال تلك المرحلة، الشيء الذي نستنتج من خلاله أن جل الأزمات التي عرفتها ولاته خلال تلك الفترات التاريخية لا يمكن أن تفصل في سياقها العام عن الماء الذي هو مصدر البقاء الأول للإنسان والحيوان، بالإضافة إلى دوره الكبير في التحكم في مناطق الانتجاع الذي هو السمة العامة والنشاط الأبرز لأهل الصحراء المستقرين وغير المستقرين لأن معاشهم اليومي وحياتهم مرتبطة ارتباطا مصيريا بما يمتلكون من مواشي، لذلك والحال هذه فنحن نرى أن أغلب الأزمات السياسية التي عرفتها ولاته والاضطرابات الداخلية والخارجية التي عرفتها كانت لصيقة إلى حد كبير بهذا المشكل، يبدو أن المشاكل الطبيعية المرتبطة بالمناخ والتي على رأسها مشكلة الماء لم تكن مرتبطة بالفترة الوسيطة فحسب بل استمر هذا الإشكال حتى فترات تاريخية متأخرة[1] وهو ما لاحظناه من خلال الحوليات المحلية والتقارير التي كتبها الأوروبيون وخاصة الفرنسيون منهم، كما أن الإشارة التي أوردتها الحوليات الموريتانية حول صعوبة العيش في الصحراء بسبب الجفاف وندرة الماء وقلته يمكن أن تكون إخبارا صريحا عن الحالة الطبيعية في تلك الفترة ودورها في التأثير على حياة الناس وانعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية على الصحراء ودور ذلك في التأثير على البنية الاجتماعية الصحراوية ودورها في تراجع الحواضر الصحراوية الموريتانية خاصة ولاته، فهذه حوليات تيشيت خلال منتصف القرن13هـ وتحديدا 1240هـ قدمت تصورا عاما عن طبيعة المناخ خلال تلك الفترة"... وفي الموفى أربعين (...) سنة العرق..."[2] تعبيرا ارتفاع درجات الحرارة في الصحراء الموريتانية، كما تحدث ولد أمبوجة عن حادثة هلاك جماعة من الأقلال في شمال المنطقة، يقول ولد أمبوجة:" ... وفي الخامس والعشرين عطش غزوة لغلال ببلاد الساحل"[3] أي سنة 1225هـ - 1810م، وهي الحادثة التي وردت في حوليات تيشيت"... وفي الخامس

---

[1] _ Toupet Charles, Le Sahel, Nathan Université, op, cit, p, 103

[2]. حوليات تيشيت، تحقيق، محمدو بن لمرابط، بحث لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط، قسم التاريخ، 1991\1992، ص 47

[3]- ابن أمبوجة، سيدي عبد الله بن سيدي محمد بن محمد الصغير العلوي، فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، (ج2)، تحقيق محمد الأمين بن سيدي المختار، رسالة لنيل الإجازة في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب، السنة الجامعية 1994 - 1995، ص 71

والعشرين عطش غز الأغلال..." 1225هـ.[1] وعن تفاصيل هذه الحادثة فقد قام الأغلال بغزو تجكانت حيث نهضوا من ولاته متجهين إلى تيندوف وبينها مع ولاته 25 رحلة وليس فيها إلا بئر واحد ردمها تجكانت فهلك جمهور جيش الأغلال بسبب العطش، ولعل ذكر وجود بئر واحدة بين تيندوف وولاته كفيلة بوصف حالة ندرة الماء في المنطقة ودورها في تراجع التعمير البشري في المجال الموريتاني بشكل عام ولنا أن نتصور الهاجس الذي كان ينتاب القوافل التجارية التي تعبر المنطقة الواقعة بين تيندوف وولاته بسبب بعد المسافة وشبه انعدام نقاط المياه، فبئر واحدة تعبر عن واقع مائي يكاد يكون منعدم، كما شهدت المنطقة بصفة عامة جفافا شديدا أهلك الحرث والنسل وكان ذلك سنة 1225هـ حيث جاء في حوليات تيشيت ما نصه:"... وفي الخامس والعشرين (...) وهي سنة النجم المذنب (...) وهي سنة لعبارة..."[2] كما نجد عند ولد أمبوجة ذكرا لها "سنة لعُبارة ..." أو (سنة أم رقبة) التي شهدت الغلاء وكانت عبارة عن سنوات عِجاف من الجفاف الشديد، كما جاء في حوليات تيشت إلا أن ولد أمبوجة اختلف مع صاحب حوليات تيشيت حول تحديد سنة وقوع الحادثة 1229هـ\ 1814م حيث أن صاحب حوليات تيشيت ذكر أنها سنة 1225هـ، ونرى أن هذا الجفاف والشدة ربما استمر لعدة سنوات قد تكون ست سنوات أو أكثر يقول ولد أمبوجة:"... و في العام التاسع والعشرين وهي المشهورة بسنة لعبارة، وقد وقع فيها الغلاء المفرط ومعناها الشديدة ويسمى بعام أم رقبة..."[3] كما ساهمت التقارير والرحلات الكشفية الأوروبية خاصة الفرنسية منها في التعريف بالحالة العامة لمناخ المنطقة، والناظر في هذه التقارير يلاحظ تطابقا بينها وبين ما أوردته المصادر الوسيطة والحوليات المحلية، فهذا محمدو أمين في كتابه المجتمع البيضاني نقلا عن الرحالة مولين Mollien: أن الرمال المتنقلة الناتجة عن العواصف الهوجاء مثلت تحديا خطيرا ينضاف إلى المخاطر التي كانت تُحدِق بسكان المنطقة وتهدد حياتهم بشكل يومي[4]. وقد وفق مولين في وصف هذه العواصف فهي أكبر تحد واجهه الإنسان في هذه المنطقة فهذه الرياح الهوجاء تساهم في ردم ينابيع المياه كما أنها تؤدي إلى ردم الآبار الموجودة في المنطقة وهو ما تسبب في هلاك الكثير من الناس، يضيف الدكتور محمدُو أمين نقلا عن رني كيَ RENÉ CAILLIÉ " لقد قطعنا منذ الصباح ثلاثة وعشرين

---

[1]– حوليات تيشيت، المصدر السابق، ص 45

[2] – حوليات تيشيت، نفسه نفس الصفحة

[3]. ابن أمبوجة، سيدي عبد الله بن سيدي محمد بن محمد الصغير العلوي، مرجع سابق، ص 72

[4] – محمدو بن محمذن، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2001، ص 231

ميلا وما تزال أمامنا ثلاثة أميال قبل أن نصل إلى مخيم الأمير (...) والطريق التي نسلكها تتخللها كثبان رملية متحركة..."[1] والغريب في الأمر أن رني كي هنا يتحدث عن منطقة لبراكنة القريبة من النهر وهي منطقة تشهد تساقطات مطرية لا بأس بها وهو ما يجعلنا أمام واقع مناخي صعب بالنسبة للمناطق الأخرى خاصة تلك الشرقية والشرقية الشمالية، ويضيف ابن أمين نقلا عن الضابط البحري ماج Mage الذي تحدث عن عواصف رملية تهب من الشرق وذلك منتصف القرن التاسع عشر وتحديدا يوم 12 ديسمبر 1859م وهو في طريقه إلى منطقة تكَانت، يضيف كايي أن هذه العواصف المتوهجة (إريفي) تساهم في تجفيف الينابيع ما تقضي على الأعشاب الموجودة، يصف كايي هذا المشهد بقوله: "منذ ثلاثة أيام تعصف الرياح الشرقية بعنف وقد نفدت المراعي"[2] ولعله نفس المشهد يتكرر مع الرحالة سولي الذي كان في طريقه إلى آدرار كيف واجهته عاصفة هوجاء قوية محمل بكميات هائلة من الرمال، وكيف أنها أرغمته على ارتداء اللثام للاحتماء منها.

وخلاصة القول: فإن تناقص المياه الجوفية في الصحراء وتواصل موجات الجفاف لم تؤدي إلى انعدام الماء بشكل نهائي رغم ما أحدثته هذه الظاهرة من تطورات ستعرفها المنطقة خلال القرون اللاحقة ونهاية الفترة الوسيطة وحتى في الفترة الحديثة ليظل عامل ندرة الماء ملازم لتاريخ التراجع العمراني في المجال الصحراوي المعروف اليوم بموريتانيا حتى يوم الناس هذا كما هو الحال بالنسبة لولاته وغيرها من الحواضر الصحراوية الموريتانية، ويرى الناني ولد الحسين أن الإنهاك الذي تعرضت له المياه الجوفية الصحراوية ليس فقط بفعل العوامل الطبيعية فحسب، بل يمكن أن تضاف له عوامل أخرى كدور القوافل التجارية العابر وللصحراء وما ساهمت به من استنزاف كبير لمياه الآبار خاصة أن القوافل التي كانت تعبر الصحراء تصل أحيانا إلى آلاف الجمال بالنسبة للقافلة الوحدة، ويمكن في هذا الإطار أن نذكر ما أورده سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم عن القافلة العامرة التي يبلغ عدد جمالها 32000 جمل والتي ذكر أنها انطلقت من شنقيط متجهة إلى زارا.[3]، وقد انعكس تراجع مستوى المياه الجوفية خلال تلك الفترة بشكل سلبي وانعكس على الآبار التي اختفى أغلبها وبعضها مازال سليما ولكنه خال من الماء بينما بعضها الآخر لم تبقى إلا آثاره في حين مازال بعضها يحتفظ بمياه على قلتها...

---

[1] – المجتمع البيضاني، المرجع السابق، ص 232

[2] – المجتمع البيضاني، نفسه، نفس الصفحة.

[3] – ولد الحسين الناني، صحراء الملثمين، المرجع السابق، ص 33

لقد عانت الحواضر الصحراوية من شح المياه وتناقص منسوبها الجوفي للمياه فيها وبعد أن كانت تتوفر منازلها على آبار خاصة أصبح أهلها يردون لآبار تبعد عنهم مئات الأمتار في مجرى الأودية المجاورة لها كما حصل مع أودغست خلال العهد الوسيط،[1] ونرى أن نفس المشكل هو التحدي الذي عانت منه حواضر الجيل الثاني خاصة ولاته التي كانت ضحية للموقع الفلكي الحار والجاف والشديد التبخر الذي جعل الماء أكبر التحديات أمام سكانها وهو ما نعتبره سببا تمكن إضافته إلى عوامل ركودها و تراجعها مع الوقت حتى أضحت في الحالة التي هي عليها الآن .

2- ودان

أ- قساوة المناخ وندرة الماء ومتلازمة القرار والترحال في وادان:

وادان في الأصل جزء لا يتجزأ من الصحراء ومُناخُها من مُناخِها والإشكالات المناخية المطروحة دائما في الصحراء هي نفسها الإشكالات المطروحة في وادان، ولكن قبل أن نتحدث عن الإشكالات الوجودية التي كانت تطرحها ندرة الماء في الصحراء دائما وعلاقتها بودان ينبغي في البداية أن نتعرف على المناخ الوادادي بشكل خاص، وكيف يمكن اعتبار مشكل ندرة الماء عاملا من عوامل تراجع هذه الحاضرة كغيرها من الحواضر الصحراوية الموريتانية.

تتأثر وادان بالمناخ الصحراوي الذي يغطي المجال الذي تنتمي إليه وهو مناخ جافّ يتميز باتساع المدى الحراري وانخفاض الرطوبة وندرة الأمطار التي تتسم بالتذبذب الحاد الذي تترتب عنه في الغالب ظروف طبيعية وبشرية مختلفة (قلة السكان – ندرة الماء وملوحته – صعوبة العيش والاستقرار – انتشار ظاهرة الترحال...) لذلك مناخ وادان هو مناخ قاري يتميز بالصيف الشديد الحرارة حيث تصل درجات حرارته قرابة 50^0 أحيانا، كما يتميز شتاؤه بالبرودة الشديدة التي قد تصل في بعض الفترات إلى قرابة 20^0 وهو ما يعبر عن المدى الحراري الشاسع للمنطقة.

أما بالسبة للأمطار أو التساقطات المطرية فهي غير منتظمة في"...الزمان والمكان..."[2] كما أنها فجائية في كثير من الأحيان، وتبدأ الفترة التي تشهد فيها وادان الأمطار من شهر أغسطس حتى شهر سبتمبر وهي الأشهر التي تعرِف فيها الصحراء والمجال الموريتاني بشكل عام التساقطات المطرية، كما أن المنطقة قد تشهد بعض التساقطات المطرية خلال الفترة المعتدلة نتيجة لقدوم موجات باردة من الشمال، وخلال فصل الصيف تشهد المنطقة بشكل عام بما في ذلك ودان رياحا

---

[1]- ولد الحسين الناني، صحراء الملثمين، المرجع السابق، ص 34

[2] – المصطفى بن احمدان، مساهمة في كتابة تاريخ وادان منذ تأسيسها 1141هـ حتى نهاية القرن 18م، مذكرة نهاية الدراسة، المدرسة العليا للأساتذة والمفتشين، شعبة التاريخ والجغرافيا، السنة الدراسية، 1984\ 1985م. ص 9

شمالية شرقية ساخنة وحارة قادمة من أعماق الصحراء الكبرى محملة بالأُتربة التي تتلف المحاصيل وتقضي على الأعشاب والمراعي .

أما عن الغطاء النباتي فهو في الأساس غطاء نباتي صحراوي بامتياز متكيف مع الحرارة المرتفعة والتساقطات المطرية المتذبذبة باستمرار . وأشجار وادان وأحوازها هي أشجار شوكية ذات جذورٍ طويلة (الطلح – التمات – أيكَنين – بالإضافة إلى الحشائش الصحراوية المختلفة التي نذكر منها أم ركبة – آسكاف ...).[1]

وأمام هذا الواقع المناخي الصحراوي الجاف والقليل التساقطات المطرية كان المخزون المائي لأهل وادان يعتمد على المخزون الجوفي الذي تحتفظ به الآبار والذي يعتبر أهم الخزانات المائية للشرب وسقي الحيوانات والزراعة، كما أن الغدران المائية التي تحتفظ بها بعض المناطق القريبة من وادان كانت معينة على بعض أنواع الزراعات في المنطقة، غير أن هذا الواقع المائي الصعب كان يجعل أهل وادان وغيرهم من سكان الحواضر الصحراوية الموريتانية أمام واقع مناخي صعب حتم عليهم التنقل من مكان لآخر خاصة الرحل الذين يحتاجون المياه لسقي مواشيهم كما يحتاجون للمراعي لتبقى هذه المواشي على قيد الحياة وهي التي تعتبر رأس المال بالنسبة لهم.

ومما ساعد على المخزون المائي في وادان أن السطح في هذا الموضع من آدرار يتميز بكونه غير مسامي[2] وقاعدته صلبة فهي أرضية تساعد على اختزان الماء الذي قد يكفي لفترات طويل ويكون هاما خلال فترات الجفاف وندرة الأمطار (سنين القحط) ويعتمد عليها السكان سواء المستقرين أو الرحل، وبالنسبة للآبار الوادانية فهي تتباين من حيث العمق ومن منطقة إلى أخرى، فالمناطق القريبة من وادان تتميز بقرب مياهها من السطح كما هو الحال في بعض المناطق مثل (تنوشرت – مايعتكَ – اسعادة ....) غير أن هذه المنطقة لا تخلو من الملوحة التي تُنَقِصُ على المياه فكُلما قلت التساقطات المطرية كُلما زادت نسبة الملوحة في الماء، وكلما كانت السنوات الماطرة متوالية كُلما

---

[1]– المصطفى بن احمدان، مساهمة في كتابة تاريخ ودان، المرجع السابق، ص 9

[2] – غير مسامي: هو مفهوم من مفاهيم علوم التُربَة وهو يعبر عن تلك التربة الصلبة أو الصخرية التي لا توجد فيها منافذ وتحافظ على المياه التي تصل إليها: يعني أنها لا تمتص مياه الأمطار بقدر ما تحتفظ بها مشكلة بحيرات جوفية يستفيد منها البشر من خلال حفره للآبار التي تصل إلى تلك الخزانات الجوفية المليئة بالماء، عكس التلال والمرتفعات الرملية المسامية التي تمتص مياه الأمطار ولا تحتفظ بها وبالتالي تكون عرضة للتبخر أو التشتت بين الكثبان الرملية.

كانت المياه أكثر عذوبة وأقل ملوحة، أما المناطق البعيد شيئا ما عن وادان فآبارها عميقة كما هو الحال في الباطن مثل (أدركَ – تزرموت ...[1].

ب– المظاهر التاريخية للجفاف وندرة الماء وتأثيرها على ودان:

ظل هاجس ندرة الماء يفرض نفسه على سكان المجال الموريتاني بشكل عام وسكان القصور بشكل خاص (ولاته– ودان– شنقيط– تيشيت...) حيث قضى الكثير من سكان لقصور الموريتانية بسبب العطش بل واختفت بعض هذه الحواضر والقرى لعامل ندرة الماء الناتج عن قلة التساقطات المطرية وبسبب تراجع منسوب البحيرات الجوفية وطمر الكثير من الآبار والعيون بسبب زحف الرمال الناتج عن الجفاف بالإضافة إلى ارتفاع دراجات الحرارة الناتج عن توهج الإشعاع الشمسي الذي يعتبر أهم العوامل وراء عملية التبخر التي ساهمت في تراجع المخزون المائي في المنطقة مع الوقت ،لذلك طالت المسافات الفاصلة بين نقاط المياه من مكان إلى آخر خاصة في الأقاليم الشمالية حيث توجد وادان، وهو ما سيلاحظه المتتبع لأخبار الصحراء الموريتانية في المصادر العربية الوسيطة، وفي الحوليات وفي تقارير الرحلات الأوروبية عن المنطقة حيث لا تخلو من مآسي تتعلق بهلاك الكثير من الناس بسبب العطش، أو باختفاء قرى وظهور أخرى لعامل الماء، فهذا البكري الذي عاصر القرن الخامس هجري الثاني عشر ميلادي في معرض كلامه عن قبيلة لمتونة التي كانت مضاربها في المناطق الوسطى من الصحراء وهي المناطق التي من ضمنها وادان وأحوازها، يقول:" ... وليس يعرفون حرثا ولا يزرعون زرعا ولا يعرفون خبزا، إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن (...) وشرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء، ويبقى الرجل منهم لا يشرب الماء، وقُوتُهم مع ذلك مكينة وأبدانهم صحيحة..."[2]، بالإضافة إلى ما قدمته المصادر الوسيطة من معلومات وافرة حول حياة أهل الصحراء وجوهرية المشكل المناخي وعلاقته بندرة الماء، فقد أسهبت الحوليات أيضا في وصف هذه الحالة كما جاء في حوليات تيشيت:"... وفي الثالث والثمانين ومائة وألف وفاة الناجم والشريف إمام الهدى، وألفظ الأمين الودانيين وهو عام بوزايلة ..."[3] كان ذلك سنة 1183هـ، حين هلك خلق كثير بسبب العطش في مرتفع بوزايلة الواقع في ظهر تيشيت، و لم تكن حادثة بوزايلة فريدة من نوعها بل كانت تتكرر كثيرا من وقت لآخر مذكرة سكان القصور الموريتانية بضرورة الحيطة والحذر في التعامل مع عدو لا يرحم وهو الصحراء كما حصل مع غزي لقلال في الشمال الموريتاني الذي كان متجها من

---

[1] – المصطفى بن احمدان، مساهمة في كتابة تاريخ ودان، المرجع السابق، ص 10

[2] – أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، المصدر السابق، ص 358

[3] – حوليات تيشيت، المصدر السابق، ص 32

ولاته نحو تيندوف، يقول ولد أمبوجة صاحب كتاب فتح الرب الغفور ما نصه:" وفي الخامس والعشرين عطش غزوة لغلال ببلاد الساحل"[1] أي سنة 1225هـ1810م، ويعني ولد أمبوجة ببلاد الساحل المجال الواقع في الشمال الموريتاني ربما شمال أو شمال شرق منطقة وادان وشرق منطقة تيرس الزمور المعروفة حاليا وهي مجابات صحراوية رملية خطيرة وفتاكة، وهي الحادثة نفسها التي ذكرها صاحب حوليات تيشيت والمتعلقة بعطش غزي الأغلال، جاء في حوليات تيشيت"... وفي الخامس والعشرين عطش غز الأغلال..." 1225هـ.[2] وعن تفاصيل هذه الحادثة فقد قام الأغلال بغزو تجكانت حيث نهضوا من ولاته متجهين :إلى تيندوف وبينها مع ولاته 25 رحلة وليس فيها إلا بئر واحد ردمها تجكانت فهلك جمهور جيش الأغلال بسبب العطش، كما ذكر ولد أمبوجة في كتابه فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور أن ابن ملك السودان منع الزرع عن أهل تيشيت وغيرها من الحواضر"... وفي السابع والعشرين... وهي سنة منع الزرع ، منعه (داع) مسكت فيها السودان الزرع عن أهل تيشيت..."[3] والقصة هي أن ابن ملك السودان داع بن منز منع حمل الزرع من بلاده ومناطق نفوذه مما تسبب في مجاعة القصور والحواضر الموريتانية، وكان ذلك سنة 1227هـ ونحن نفهم من هذا الخبر أن أهل الصحراء الموريتانية على الأغلب لم تكن ظروفهم البيئية مواتية للزراعة ربما" لندرة الماء ولقلة التساقطات المطرية" مع وجود استثناءات محدودة في المناطق الرطبة في الجنوب والجنوب الغربي وفي بعض المناطق التي كانت توجد بها زراعات مطرية محدودة أو زراعات تحت واحات النخيل، لذلك أصبحوا ضحية للاحتكار الذي كانت تمارسه ضدهم بعض السلط السياسية المجاورة لهم من حين لآخر كما حصل خلال هذا القرن بعد أن منع السودانيون المواد الزراعية عنهم مما كانت له عواقب وخيم على سكان القصور لعل أرحمها تلك المجاعات التي كانت لها انعكاسات كارثية على أهل الصحراء عامة والحواضر خاصة.

لقد قدم الرحالة الفرنسيون معلومات هامة عن المحيط الطبيعي للمجال الصحراوي المعروف اليوم بموريتانيا وهو المجال الذي يعيش فيه البيضان ومن الملاحظ إجماع هؤلاء الرحالة على قساوة المنطقة وصعوبة مناخها وندرة الأمطار ونقاط الماء فيها، وفي هذا الإطار يذكر محمدو أمين في كتابه المجتمع البيضاني نقلا عن رني كيَ " لقد قطعنا منذ الصباح ثلاثة وعشرين ميلا وما تزال أمامنا ثلاثة أميال قبل أن نصل إلى مخيم الأمير (...) والطريق التي نسلكها تتخللها كثبان رملية

---

[1]– ولد أمبوجة، فتح الرب الغفور، المصدر السابق، ص 71

[2]– حوليات تيشيت، المصدر السابق، ص 45

[3]– أمبوجة، فتح الرب الغفور، نفسه، ص 72

متحركة"[1] والغريب في الأمر أن رني كي هنا يتحدث عن منطقة لبراكنة القريبة من النهر وهي منطقة تشهد تساقطات مطرية لا بأس بها وهو ما يجعلنا أمام واقع مناخي صعب بالنسبة للمناطق الأخرى خاصة المناطق الشرقية والشرقية الشمالية التي من ضمنها ودان، ويضيف ولد أمين نقلا عن الضابط البحري مانج الذي تحدث عن عواصف رملية تهب من الشرق وذلك منتصف القرن التاسع عشر وتحديدا يوم 12 ديسمبر 1859 وهو في طريقه إلى منطقة تكّانت، يضيف كايي أن هذه العواصف المتوهجة (إريفي) تساهم في تجفيف ينابيع الماء كما تقضي على الأعشاب الموجودة، ويصف كايي هذا المشهد بقوله:" منذ ثلاثة أيام تعصف الرياح الشرقية بعنف وقد نفدت المراعي"[2] ولعله نفس المشهد يتكرر مع الرحالة سولي الذي كان في طريقه إلى آدرار حينما واجهته عاصفة هوجاء قوية محملة بكميات هائلة من الرمال، وكيف أنها أرغمته على ارتداء اللثام للاحتماء منها.

ج- تأثير الجفاف وتناقص الماء على ودان ومحيطها:

تعرفنا في الصفحات السابقة على الطبيعة العامة لمناخ ودان الذي هو في الأصل جزء لا يتجزأ من المناخ الصحراوي العام الجاف والشديد الحرارة الذي انعكس منذ فترارت قديمة على المستوى المائي في المنطقة والذي تمثل في الندرة والتذبذب من فترات لأخرى، لذلك ظلت وادان وعبر التاريخ تحت رحمة التقلبات المناخية الغير مستقرة والتي شهدت على فترات من القحط كانت لها انعكاسات على المنطقة بشكل عام بما في ذلك ودان وغيرها من الحواضر الصحراوية الموريتانية.

بعد ما قمنا به من مساءلة لبعض ما أوردته المصادر الوسيطة والحوليات المحلية وتقارير الرحلات الأجنبية، نرى أنه من المعقول والجلي الحديث عن تأثير واضح وعلاقة وطيدة بين المشكل المناخي المتمثل في الجفاف وندرة الماء وتراجع حاضرة ودان، وعليه فإننا نرى أن ظاهرة قله السكان والتواضع العمراني وسيطرة مظاهر التراجع في حاضرة ودان، كما عليه الحال في الحواضر الصحراوية الموريتانية، ناتجة عن التناقص المستمر في المستوى المائي لآبار المنطقة نتيجة لفترات الجفاف التي كانت تضرب المنطقة من حين لآخر، والتي نتجت عنها سنين عجاف أهلكت الحرث والنسل وساهمت في نزوح الكثير من السكان الرحل عن هذه الحاضرة، وهو ما نرى أنه كان عاملا ينضاف إلى العوامل الأخرى غير المباشرة التي أفرغت الحواضر من سكانها أو على الأقل حجمت من الكم الديمغرافي فيها، بل وربما كانت وراء فترات من انقطاع القوافل التجارية عنها نتيجة لطمر الآبار وتناقص منسوب الباقي منها كما أشارت إلى ذلك بعض المصادر والمراجع التي تناولت المشكل

---

[1] – محمدو محمذن أمين، المجتمع البيضاني، المرجع السابق، ص 232

[2] – نفس المرجع والصفحة،

المناخي في الصحراء بشكل عام، وبالتالي يكون مشكل ندرة الماء في وادان والصحراء بشكل عام عاملا من العوامل التي ساهمت في تراجع هذه الحاضرة خاصة وأن نقاط المياه تتناقص كلما اتجهنا من الصحراء نحو الجنوب وتقل كلما توغلنا في الصحراء شمالا وفي الشمال الشرقي من نفس المنطقة، وعليه يمكن تفسير هذه الظاهرة بتناقص مستوى التساقطات شمالا ووفرتها جنوبا نسبيا، وهذه الحالة تنعكس على مستوى البحيرات الجوفية التي تغذي الآبار الموجودة في كلى الجانبين، وقد تأثرت المياه الجوفية في المنطقة الشمالية بفعل التغيرات المناخية التي عرفتها المنطقة منذ القرن 11م، ولكن Serge Robert يرى أن مستوى الآبار لم كما أن التبخر الحاد لمياه المستقعات أدى إلى الحد منها.[1] وقد انعكس تراجع مستوى المياه الجوفية خلال تلك الفترة بشكل سلبي على الآبار التي اختفى بعضها وبعضها مازال سليما ولكنه خال من الماء بينما بعضها الآخر لم تبقى إلا آثاره في حين مازال بعضها يحتفظ بمياه على قلتها، كما يمكن فهم إنشاء أهل وادان لبئر محصنة مخفية في القصر نوع من التعبير عن ندرة هذه المادة الغالية في حياة أهل وادان، ولئن كان الهاجس الأمني والخوف من الإغارات هو السبب إلا أنه من المشروع لنا أن نعتبر هذه الفكرة وهي إنشاء بئر محصنة ليس إلا تجسيد للواقع المقلق لدى أهل القصر من ندرة الماء الذي ظل يلازمهم منذ فترات طويلة كما هو لحال بالنسبة للحواضر العالمية الأخرى التي تحولت مع الوقت إلى مدن كبرى مع الوقت وذلك لاحتوائها على عوامل التطور والتمدد والتي من أهمها عنصر الماء الذي ظل عبر التاريخ عامل ركود وتراجع كما كان عامل ازدهار. إن عشرات الآبار إن لم نقل المئات لم تعد موجودة والمتبقي أصبح جافا بلا ماء، وهو ما نرى أنه مؤشر واضح على تراجع منسوب المياه الجوفية في المنطقة نتيجة لتتابع سنوات الجفاف من فترات لأخرى، وبالتالي فإن قلة الآبار انعكست بشكل واضح على قلة العمران وضعف قدرة ودان عن التوسع والتمدد بل ساهمت فترات الجفاف في الكثير من الأزمات التي كانت وراء نزوح الكثير من السكان.

الخاتمة:

وخلاصة القول: فإن ثنائية الجفاف وندرة الماء في المجال الصحراوي المعروف اليوم باسم موريتانيا كان لهما تأثير كبير على حياة سكان المنطقة في حلهم وترحالهم، كما كان لهما بالغ الأثر على مسار العمران البشري في المنطقة وحتى مسار الأحداث التاريخية في المجال بشكل عام، وإليهما يرد عجز أهل المنطقة عن تحقيق تراكم عمراني حضري، فكما كانت الظروف المناخية سببا في

---

[1] – ولد الحسين الناني نقلا عن: Serge Robert ; Archéologie ; p. 49

ظهور جيل من المراكز الحضرية التي عبرت عن مستويات من التعمير البشري في المنطقة فإن ظروفا مناخية طارئة كانت وراء اختفاء العديد من هذه المراكز الحضرية وتراجع البقية وتحجيم أعدادها وأدوارها واستنزاف الكثير من سكانها بشكل جزئي أو كلي..

إن الظروف المناخية الصعبة المتمثلة في الجفاف وندرة الماء التي كانت وراء موت الكثير من الحواضر مثل (أودغست – كمبي صالح – بانكلابين – مدوكن – آبير ...) هي نفسها الظروف التي أثرت على حاضرتي ولاته وودان وساهمت ولا تزال تساهم في تراجعهما المستمر، فعبر تاريخ هاتين الحاضرتين كانت موجات الجفاف تراودهما من فترات لأخرى بل كادت أن تفرغهما من سكانهما في بعض الفترات، حيث كان موت تازخت نذير شؤم لولاته، وموت تينيكِي نذير شؤم لودان، وإن كانت بعض الروايات المحلية ترى أن سبب اختفاء هاتين الحاضرتين راجع إلى عوامل أخرى فإنه من خلال الكثير من إشارات نفس الروايات تأكد لنا أن الجفاف و تناقص الماء كان أهم تلك العوامل وأشدها فتكا بل كان هو مرد كل تلك العوامل الأخرى سواءً كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، لأن كل الأزمات في الصحراء مردها إلى الماء ولا شيء غير الماء كما شاهدنا في ولاته ودان.

البيبليوغرافيا المعتمدة

1- مصادر ومراجع بالعربية:

- ابن الأثير أبو الحسن علي ابن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، (ج8)، دار الفكر بيروت، 1978.
- أبو عبيدة البكري، المسالك والممالك، (ج) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د، ت، ن.
- أبو عبد الله البكري، المسالك والمالك، ج2، دار الغرب الإسلامي، 1992.
_ أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، المسالك والممالك، ج2، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، 2002.
- أبو القاسم ابن حوقل النصيبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979.
- أبو القاسم محمد بن حوقل، صورة الأرض، ج1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1938،
- ابن حامد المختار، حياة موريتانيا، التاريخ السياسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000.
- ابن حامد المختار، موسوعة حياة موريتانيا (التاريخ السياسي) دار الغرب الإسلامي، ط1، 2000
- الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج2، 1983.
- موسى بن سعيد المغربي، الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطاعة والنشر، والتوزيع، بيروت، 1970.

- ولد أيده أحمد مولود، موريتانيا العتيقة قصور ولاته وودان وتيشيت وشنقيط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2014.
- ولد السالم حماه الله، تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية، منشورات الزمن،2007
- ولد أطوير الجنة، مقال منشور في مجلة الثقافة الموريتانية
- النحوي (الخليل)، بلاد شنقيط أرض المنارة والربا عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد ادبني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحضرة) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987
- الحسن بن أحمد المهلبي العزيزي، المسالك والممالك، د. ت. ن.
_ محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م
_ ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، ط2 دار صادر، بيروت، 1995م
- أحمد بن أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي، البلدان، المكتبة الحيدرية، النجف، العراق، 1957
- محمدو بن محمذن، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2001،
- ابن أمبوجة، سيدي عبد الله بن سيدي محمد بن محمد الصغير العلوي، فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، (ج2)، تحقيق محمد الأمين بن سيدي المختار، رسالة لنيل الإجازة في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب، السنة الجامعية 1994 – 1995.
- بشيري محمد، ولاته بطاقة تعريفية، نشرية تصدر عن مركز البحوث والدراسات الولاتية، 2014
- حوليات تيشيت، تحقيق، محمدو بن لمرابط، بحث لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط، قسم التاريخ، 1991\1992
- محمد بن عبد الله الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، عالم الكتب، بيروت، 1409ه
- المراكشي، الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية بغداد، 1986م
- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط2، ج1، دار صادر، بيروت، 1995
- صفي الدين عبد المؤمن عبد الحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط1، ج1، دار الجيل، بيروت 1954م
_ شرح عقيدة الطالب جدو الغلاوي، الطالب أحمد ولد أطوير الجنة الحاجي الوداني، غير منشور.

- المصطفى بن احمدان، مساهمة في كتابة تاريخ وادان منذ تأسيسها 1141هـ حتى نهاية القرن 18م، مذكرة نهاية الدراسة، المدرسة العليا للأساتذة والمفتشين، شعبة التاريخ والجغرافيا، السنة الدراسية، 1984\ 1985م.

- مجموعة باحثين، تحولات المدينة الصحراوية الجزائرية، ج1، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائر

مراجع أجنبية:

_ Jacques-Meunié (D.), Cites Ancienne de Mauritanie, Provinces du Tagant et du Hodh, Librairie C, KLINCKSIECK, Paris, 1961,

_ Ch. Toupet. Les conditions Climatiques et Végétales et la mise en valeur de la région. In Tadaoust.

_ Mohamed Ould Khattar, Préhistoire du Sud-est Mauritanien, Le Dhar Tagant, Dossiers et Recherches, sur l'Afrique, NO2